الباب الثاني

التسامح

obeikandl.com

الباب الثاني

التســـامح

التسامح لغة [1]:

السَّماحُ والسماحة: الجُودُ. ورجل سَمْحٌ وامرأة سمحة، يُقال: سَمَحَ وأسْمَحَ إذا جاد وأعطى عن كرم وسخاء.

والمسامَحَة: المساهلة. وتسامحوا: تساهلوا.

وقولهم: الحنيفيةُ السَّمْحَةُ: ليس فيها ضيق ولا شدة.

وتقول العرب: عليك بالحق فإن فيه لمسْمَحاً، أي متسعاً، كما قالوا: إن فيه لمندوحة.

من ذلك يتبين أن التسامح خلق حسن أصيل من أخلاق العرب، يحرص على حسن معاملة الغير وعدم مؤاخذته إن صدر منه ما يُغضب، والتماس العذر له، وقيل: (التمس لأخيك سبعين عذراً).

والذي يتمتع بالتسامح لا يفترض سوء النية بالغير، بل يحسن الظن به، إلا إذا ثبت عكس ذلك بالدليل اليقيني لا الظني، وهذا الشعور له تأثير طيب على المتسامح، يجعل نفسه طيبة تشعر بالراحة والاطمئنان ولا تعرف القلق وتوجس الشر من الغير.

التسامح في القرآن الكريم:

وردت آيات قرآنية عديدة في القرآن الكريم تأمر بالعفو والصفح والتسامح مع الغير، وأن من يتعامل مع الناس بهذه الصفات الحسنة، يكون أقرب للتقوى، وله حسن الجزاء من الله ﷻ، ومن ذلك قوله تعالى:

- "... فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ "

سورة البقرة/١٠٩

- " وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ " سورة البقرة/٢٣٧

(١) لسان العرب – ابن منظور – ص٢٠٨٨ بتصرف.

obeikandl.com

- " إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾" سورة النساء/١٤٩

- " وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾" سورة آل عمران/١٣٣-١٣٤

- "... وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾" سورة النور/٢٢

- " وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ " سورة الأنعام/١٠٨

- " وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ " سورة يونس/٩٩-١٠٠

التسامح في السنة النبوية:

- عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "أفضل المؤمنين؛ رجل سَمْحُ البيع، سمح الشراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء"[1].
- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "دخل رجل الجنة بسماحته قاضياً ومتقضياً"[2].
- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى،

(١) رواه الهيثمي في المجمع (٤/٧٥) وقال رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

(٢) رواه أحمد ورجاله ثقات.

وإذا اقتضى" [1].

- عن عبد الله بن أبي قتادة؛ أن أبا قتادة طلب غريماً له فتوارى عنه. ثم وجده. فقال: إني معسر. فقال: الله؟ قال: الله. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سره أن ينجيه الله من كُرَبِ يوم القيامة فلينفس عن معسر، أو يضع عنه" [2].
- عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أخبركم بمن يحرُمُ على النار، أو بمن تَحرُمُ عليه النار: على كل قريب هين سهل" [3].
- عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزا عن المعسر. قال: قال الله ﷻ نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه" [4].

فالسنن القولية والفعلية للرسول ﷺ تؤكد على اللين في التعامل والتسامح مع الغير ونبذ العنف والبطش، وسيرة الرسول ﷺ في مختلف مراحل حياته، أبرز مثال على أن مبادئه ليست أقوال فقط، بل إن الواقع الفعلي في تعامله مع الغير تؤكد أنه كان أول من يطبق ما يأمر به من نصائح وأخلاق طيبة.

ويتحدث القرآن الكريم عن الرسول ﷺ ورسالته إلى العالمين وأنها رحمة وسلام لهم ونجاة من العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ سورة الأنبياء/١٠٧.

ومن الأقوال المأثورة [5]:

- " من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر".
- " إن رجلاً سب رجلاً وقال له: إياك أعني، فقال الآخر: وعنك أُعرض".

---

(١) رواه البخاري – الفتح ٤ (٢٠٧٦).

(٢) رواه مسلم (١٥٦٣) كتاب المساقاة باب فضل إنظار المعسر.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٨) وقال هذا حديث حسن غريب.

(٤) رواه مسلم (١٥٦١) كتاب المساقاة باب فضل إنظار المعسر.

(٥) المستطرف (٢٧٢/١).

- وروى: أن "أبو عامر الشعبي" في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، في نهاية القرن الأول الهجري، وكان الشعبي عالماً ومؤرخاً وراوية حديث تتلمذ على يديه كبار الفقهاء والعلماء.
- ذات يوم تقابل رجل مع الشعبي وكان على خصومة معه، فانهال الرجل على الشعبي يتهمه بأسوأ الصفات وينسب إليه أعمالاً تظهره بمظهر الرجل غير الصادق غير الوفي.

وفي هدوء قال الشعبي للرجل: يا هذا إن كان كلامك صادقاً، فليغفر الله لي، وإن كان ما ادعيت به ضدي كذباً، فليغفر الله لك.

الأساس الفكري للتسامح في الإسلام:

يختلف التعامل مع الغير، من شخص لآخر، فهناك من يتعامل مع الآخرين، بمثل تعاملهم فإن أحسنوا أحسن، وإن أساءوا أساء إليهم بمثل إساءاتهم، وهناك من يميل إلى العفو والتسامح رجاء مثوبة الله ﷻ، إلا أنه توجد فئة ثالثة تُحسن إلى من أساء إليها، ابتغاء محبة الله تعالى، لقوله تعالى:

- (.... وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾) سورة آل عمران/١٣٤

- (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾) سورة فصلت/٣٤

وسار الصحابة رضوان الله عليهم على نهج الرسول ﷺ في العفو والتسامح وحسن معاملة المسلمين، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ وقد طعنه أبو لؤلوه المجوسي – وهو من أهل الذمة – أوصى الخليفة من بعده بذمة الله وذمة محمد ﷺ أن يوفي بعهدهم ولا يُكلفوا فوق طاقتهم، وأن يقاتل من وراءهم"[1]

وفي رواية أخرى: "... وأوصيكم بأهل ذمتكم، فإنهم عهد نبيكم "[2]،

وماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية، فشيعها أصحاب رسول الله ﷺ

والإسلام في تعامله مع غير المسلمين، يسمو إلى الدرجة العليا في التسامح معهم، فلا يضيق عليهم فيما يدينون،

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صـ٢٢٨ – طبقات ابن سعد ج٣ صـ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ – طبقات ابن سعد ج ٣ صـ٣٤٤.

ولا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يلزمهم بمخالفة معتقداتهم وتعاليمهم، رغم اختلافهم عما يعتقد المسلمون.

وأساس النظرة المتسامحة التي تسود المسلمين في معاملة مخالفيهم في الدين، يرجع إلى الأفكار والحقائق الناصعة التي غرسها الإسلام في عقول المسلمين وقلوبهم. وأهمها:[1]

١- التسامح في الفكر الإسلامي، قضية أخلاقية، وضرورة اجتماعية يجب أن تكون أساسية في تعامل الناس مع بعضهم البعض، وهو ضمن منظومة أخرى من الأخلاق والمبادئ الطيبة التي يدعو إليها الإسلام كالعدل وعدم الظلم والرحمة والرأفة وحسن معاملة الغير والتماس العذر له، ونشر السلام والمحبة بين أفراد الأسرة والمجتمع والعالم بأسره، والتعايش الإيجابي بين الجميع، ليتفرغ الناس لعباداتهم وتيسير أمور حياتهم بدلاً من تضييع الوقت في الخلافات والمنازعات ومحاولة إيذاء الغير او الانتقام منه.

٢- اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أياً كانت عقيدته أو جنسه أو لونه. قال تعالى: **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ**.. ﴿٧٠﴾ سورة الإسراء/ ٧٠، وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العملية ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفا، فقيل له: يا رسول الله إنها جنازة يهودي ! فقال: أليست نفسا؟!. بلى ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان، فما أروع الموقف، وما أروع التفسير والتعليل!.

فالحقوق الشخصية مكفولة لكل فرد في المجتمع بصرف النظر عن اختلافه في العقيدة أو الجنس أو اللون، ويحرم على أي شخص الاعتداء على الغير بأي نوع من الاعتداء على المال أو النفس أو العرض، ولم يكتف الإسلام بذلك بل أمر بحسن معاملة الغير والتسامح معه وصلته.

وهذا السلوك ليس منة أو دليل ضعف أمام الغير، بل هي من مقتضيات الالتزام بما أمر به الشرع الإسلامي الحنيف، وتطبيق المبادئ الطيبة التي يجب التحلي بها.

٣- اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع، قال تعالى:

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي – د. يوسف القرضاوي – صفحتي ٤٩، ٥٠.

- ... فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ... ﴿٢٩﴾ سورة الكهف/٢٩

- وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ سورة هود/١١٨

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب. كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم يوما أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم: وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ سورة يونس/٩٩

فالتسامح الحقيقي يقبل اختلاف الآخرين – سواء في الدين أو الأفكار السياسية أو الثقافية – ويعترف بوجوده وشرعيته واختلاف نظرته الذاتية في الاعتقاد وغير ذلك من مناهج الحياة، بما لا يخالف النظام العام أو الآداب، حتى لا تسود الفوضى والفجور في المجتمع، والآيات التي سبق أن أشرنا إليها تسمح بحرية التدين، بما يؤكد التسامح الديني في أعمق معانيه وأروع صوره.

٤- التسامح يتطلب أن ينسى المرء الماضي، بكل آلامه وأخطائه، وينظر إلى المستقبل، وإلى الجزاء الطيب من الله، على عفوه وتسامحه، ويتخلى المرء عن الرغبة في إيذاء الآخرين أو الانتقام منهم، ويتذكر فقط المواقف الأخرى الطيبة التي صدرت منهم، وبذلك نملأ قلوبنا بالرحمة والحنان والمودة، وننبذ مشاعر الغضب، وندعو الله لمن أخطأ في حقنا بالهداية إلى صراطه المستقيم، بدلاً من الدعاء عليه أو المطالبة بمعاقبته، باعتبار أن بني آدم مُعرض للخطأ، وخيرهم من تاب عن خطئه، وأقلع عنه، وبدأ في عمل الصالحات والطيبات، تكفيراً عما سبق أن ارتكبه، ويقتضي ذلك قبول الاعتذار من المخطئ، وعدم الإصرار على الخصومة، لأن بني آدم خطاء، وإقدام المخطئ على التوجه إلى الطرف الآخر والاعتذار له عما بدر منه، دليل على ندمه عما صدر منه، وبخاصة إذا أبدى نيته في عدم تكرار الخطأ، وبخاصة إذا كان المعتذر من الأبناء أو الأقارب المقربين، فيجب قبول العذر، استمراراً لحسن العلاقة بين الطرفين ومنح الفرصة للمعتذر لعدم الاستمرار في خطئه وتكراره مرة أخرى، وإعطائه درساً في الخلق القويم، والصفح والعفو والتسامح مع الغير ليكون هذا التصرف هو سبيله مع من يخطئ في حقه.

وإذا تكرر الخطأ مرة أخرى، فيستحسن أيضاً العفو والتسامح، إلا إذا زاد التكرار عن حده، فيمكن

التشدد قليلاً أسوة بما فعله الرجل الصالح مع موسى عليه السلام عندما تكرر النسيان ثلاث مرات، فاضطر إلى اتخاذ موقف حاسم معه.

٥- ليس المسلم مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين. قال تعالى: (وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٦٩ سورة الحج/٦٨-٦٩، وقال مخاطباً رسوله ﷺ في شأن أهل الكتاب: فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٥) سورة الشورى/١٥.

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد.

٦- إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل. ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر. قال تعالى: ".... وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ... " سورة المائدة/٨.

وقال ﷺ: " دعوة المظلوم – وإن كان كافرا – ليس دونها حجاب" (١).

فالعناصر الأساسية للتسامح الفكري في الإسلام، تدعو المسلم إلى أن يعامل الناس وفقاً لأخلاقه هو وليس بأخلاقهم، فإن أساؤا لا يعاملهم بالإساءة بل يحسن إليهم، وإن أحسنوا يزد في إحسانه، لأنه إن أساء التصرف فهو بذلك يتخلق بأخلاقهم ويزيد في الفجوة والجفوة التي بينه وبينهم، أما إن أحسن التصرف وتسامح معهم، فإنه يساعدهم على أن يُصَفُّوا نفوسهم، ويعودوا إلى صوابهم ورشدهم، ويمنحهم الفرصة للتفكير في مدى صحة ما

(١) رواه أحمد في مسنده.

يفعلونه، مقتدياً بقول الشاعر:

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً بالحجر يُرمى فيرمي أطيب التمر

والمتسامح لا ينتظر ثناءً ولا شكراً من الغير، اعتماداً على انتظار الأجر والثواب من الله ﷻ، الذي خلق الناس جميعاً من الطين، فلا يتميز إنسان على آخر إلا بالتقوى، ولتجعل قدوتنا رسول الله ﷺ الذي كان يدعو إلى التسامح في كثير من أحاديثه النبوية التي أشرنا إليها آنفاً.

من فوائد التسامح:

١- يحبه الله ورسوله والملائكة المقربون.

٢- يضفيه الله على وجوه المؤمنين ليكون لهم علامة مميزة في الدنيا والآخرة.

٣- السمح محبوب لدى أهله ومجتمعه.

٤- السماحة في البيع والشراء باب عظيم من أبواب كسب الرزق وتكثيره.

٥- السماحة تجلب التيسير في الأمور كلها.

٦- بالسماحة يغنم الإنسان أكبر قدر من السعادة وهناءة العيش.

٧- يجلب سمح النفس الخير الدنيوي حيث يميل الناس إلى التعامل معه فيكثر عليه الخير بكثرة محبيه والمتعاملين معه.

٨- السماحة في التعامل مع أصحاب الديانات الأخرى تجلب لهم الطمأنينة والأمن فيؤدي ذلك إلى حبهم للمتسامحين معهم ومعاونتهم ثم الدخول في هذا الدين الذي يقر مبدأ التسامح مع الآخرين، وقد حدث ذلك عقب الفتوح الإسلامية[1].

ومن فوائد التسامح[2]:

١- أن العبد إذا ابتلي بالمحنة أو الذنب فإنه يدعو الله أن يقيل عثرته ويغفر زلته فيعامل بني جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا، عفا الله عنه، ومن سامح أخاه في

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ج٦ ص٢٣٠٠.

(٢) بتصرف من نضرة النعيم ج١ ص٢٣.

إساءته إليه سامحه الله، ومن أعفى وتجاوز تجاوز الله عنه، ويلحق بذلك أن العبد إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه و لم يقابل إساءته بإساءة تعرض بذلك لمثلها من رب العزة والجلال، أو أن الله – ﷻ – يقابل إساءته بإحسان منه وفضل.

٢- أن من ترك لوجه الله أمراً أو فعله لوجهه، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، ويدل على ذلك قوله تعالى:

" فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ " سورة الزلزلة/٧، ٨

٣- أنه من حسن الفطنة، العمل على اكتساب الحسنات وارتفاع الدرجات وذلك بالابتعاد عن تلك الذنوب التي تسمى بالذنوب الملكية من نحو الجبروت والتكبر والعظمة والقهر والاستعلاء في الأرض، وذلك كما حدث من فرعون وغيره من الجبابرة الذين طغوا في الأرض وعتو عن أمر ربهم، وكذلك التخلي عن النظرة الفوقية واعتقاد أنه أعلى من الناس، وأنهم دونه وأن يتذكر دائماً أن فقير اليوم قد يصبح غني الغد وأن الأيام دُولة بين الناس مصداقاً لقوله تعالى: "...وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ..." سورة آل عمران/, ١٤٠

٤- أن يتذكر المسلم دائماً أن التوسعة في الرزق أو البسطة في العلم أو الجسم ليست إلا اختباراً له من مولاه وليست بحال دليلاً على إكرام الله ﷻ له فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أو الولد دليلاً على رضى المولى تعالى، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة الحقيقية للحصول على هذا الرضوان والقرب من الله ﷻ، يقول سبحانه: " وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ.. " سورة سبأ/٣٧، لذلك على العبد أن يحمد الله على ما أعطاه من النعم، ويتسامح مع الغير، حتى يحافظ الله له على أمواله ويبارك له فيها وفي ذريته.

٥- أن طاعة الله بالتسامح ومعاملة الغير بما أمر الله به توجب محبة الله، وحسن الخلق والتسامح مع الناس ومعاملتهم بإخاء ومحبة تؤدي إلى محبته من الناس، فيكتسب محبة الرب والعباد.

وصدق الحكيم الذي قال:

أربع تُعرف بهن الأخوة: الصفح قبل الانتقاد له، وحسن الظن قبل التهمة، وبذل الود قبل المسألة، والتماس العذر قبل العيب.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما:

(لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه، واعتذر في أذني الأخرى لقبلت عذره).

فاللهم اجعلنا من المتسامحين، ومن ذوي الصفح الجميل عمن أساء لنا، وندعوه ﷻ أن يعفو عنا ويغفر لنا ويرحمنا، جزاء حسن معاملتنا للغير.

تقدير الرأي الآخر وعدم تسفيهه:

إن التسامح مع الغير يقتضي تقدير رأيه، والاقتداء بالفقهاء الأعلام الذين كانوا يقولون: "رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب"، والاعتقاد أن الله ﷻ خلق عقول الإنسان في تفاوت، بل إن الإنسان نفسه قد يتغير تفكيره في مسألة ما من وقت لآخر، إما لتوصله إلى دليل جديد كان خافياً عليه، أو إحاطته بأسباب أو علوم لم يكن يعلمها أو لتغير مداركه ونحوها عندما تقدم في السن، إلى غير ذلك من الأسباب، التي تبرز أن الرأي الآخر المختلف قد يكون له وجاهته، وعلى ألا يجبر الآخرين على اعتناق فكره والعمل به.

والإسلام يدعونا دائما إلى التسامح والتحلي بالأخلاق الكريمة في كافة تصرفاتنا وتعاملاتنا مع الغير، حتى مع من أخطأ في حقنا أو أساء إلينا، ويدعونا إلى العدل حتى مع أعدائنا ومن أبغضناهم لسوء سلوكهم.

وعندما مدح الله ﷻ الرسول ﷺ، قال في محكم كتابه في سورة القلم: "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ "

فالأخلاق الحميدة جماع المحاسن، وهي تدعو الإنسان إلى كل فضيلة يؤديها لحسن المعيشة في الدنيا، أو لحسن العاقبة في الآخرة.

والتسامح يجعلنا من أصحاب الخُلق الوسط، فإن ذلك يجعل الإنسان مهيب الجانب محبوباً من الغير، محافظاً على حقوق الآخرين، مما يجعلهم أيضا يحافظون على حقوقه، ويسود الوئام والوفاق بين الجميع، وصدق الله العظيم القائل مخاطبا رسوله الكريم ﷺ في سورة آل عمران: وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ... ﴿١٥٩﴾

فالإخاء الإنساني والتسامح يقتضي احترام الرأي الآخر، حتى ولو لم يتفق تماماً معه، عملاً بالحكمة القائلة: " الاختلاف في الرأي لا يُفسد للود قضية "، وكما قال البعض: " لا تستهن بالساعة المعلقة على الحائط المتوقفة عن العمل، فإنه يجيء وقت في اليوم تكون هي أصح ساعة في المنزل".

فالإنسان إذا كان يغفر لأحبابه أو لأولاده ما قد يحدث منهم من تصرفات لاختلافهم في الرأي معه، فعليه ألا يجعل خلافه في الرأي

مع الآخرين، سبباً للخلاف والشقاق بل يتسامح معهم، ويعتبرهم إخوة له في الإنسانية وشركاء له في المجتمع والوطن.

العفو والتسامح مع الغير:

القدرة على العفو عمن أساء؛ خلق طيب، وأطيب منه أن يعفو عمن أساء له إساءات بسيطة متعددة، أما من تكون عنده القدرة على العفو عن الإساءات الكبيرة المتعددة، يكون قد بلغ درجة من حسن الخلق يندر أن يصلها كثير من الناس، لطبيعة البشر التي تميل إلى القصاص من الجاني، والرد على المعتدي بمثل اعتدائه.

والمتتبع للعديد من الروايات التي وردت في كتب السيرة يجد أن الرسول ﷺ، قد بلغ القمة في حسن الخلق ومن بينها كثرة عفوه وتسامحه مع صناديد قريش الذين أساءوا إليه وإلى المسلمين أبلغ إساءة، وما تركوا وسيلة لمنعه ومنع المسلمين – عن الاستمرار في الدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام، والإيمان بالله الواحد – إلا سلكوها ومع ذلك فكلما وقع أسير منهم في الحرب، طلب من المسلمين معاملته – وكذلك باقي الأسرى – بالحسنى، ولم يستمع لمشورة عمر بن الخطاب ﷺ بقتل أسرى بدر لأنهم أقوياء حتى لا يحاربوا المسلمين مرة أخرى، وأخذ بمشورة أبو بكر الصديق ﷺ بأخذ الفداء من الأسرى وإعادتهم إلى أهليهم، مع أن الله ﷻ عاتب رسوله ﷺ على ذلك؛ إلا أن هذا الفعل يدل على حبه ﷺ للتسامح.

والأمثلة عديدة من كتب السيرة، تؤكد أن شيمة الرسول ﷺ العفو عمن يسئ إليه أو يخطئ في حق الإسلام والمسلمين، مادام الرسول ﷺ ما يزال يرجو توبته وعودته إلى الحق والصواب، وسنذكر فيما بعد أمثلة عديدة عن تكرار عفو الرسول ﷺ عن سُهيل بن عمرو وعبد الله بن أبي بن سلول، ونشير هنا إلى واقعة أخرى تعرض فيها الرسول ﷺ لمحاولة قتله من أحد المشركين ولكن الله نجاه ومكنه من الشخص الذى كان يهدده، فقد ورد في الجامع لأحكام القرآن (أنه يوم بطن نخلة " قرية قريبة من المدينة " لما انهزم المشركون وغنم المسلمون، وكان يوما مطيرا، خرج النبي ﷺ لقضاء حاجته واضعا سلاحه، فرآه الكفار منقطعا عن أصحابه فقصده غَوْرث بن الحارث فانحدر عليه من الجبل بسيفه، فقال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال " الله " ثم قال: " اللهم اكفني الغورث بما شئت " فأهوى بالسيف إلى النبي ﷺ ليضربه، فانكب لوجهه لزلقة زلقها، وذكر الواقدي أن جبريل عليه السلام دفعه في صدره وسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ. وقال: "من يمنعك مني يا غورث ؟ فقال: لا أحد. فقال: تشهد لي بالحق وأعطيك سيفك ؟ قال: لا، ولكن أشهد ألا أقاتلك بعد هذا ولا أعين عليك عدوا فدفع إليه السيف)[1] .

(١) حـــه صـــ٣٧٢.

وقد أشار القرطبي إلى هذه الرواية أيضا عند تفسير قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ... ﴿١١﴾ سورة المائدة/١١

وذكر أنه ورد في البخاري أن النبي ﷺ دعا الناس فاجتمعوا، وغورث جالس عند النبي ﷺ، ولم يعاقبه، وذكر الواقدي وابن أبي حاتم أنه أسلم، ورجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس " [1].

ولما ذهب الرسول ﷺ إلى الطائف، ولم يتقبلوا دعوته، وحرضوا عليه السفهاء ليرموه بالحجارة فأدموه، وقال ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه:

" اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " [2]

والأمر بالعفو ورد في كثير من آيات القرآن الكريم، ولم يرد الأمر بتخصيص العفو بالمسلمين أو بالأقارب أو بمواطني البلد، إنما جاء الأمر عاما لكل الناس، ومن ذلك قوله تعالى:

(خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾) سورة الأعراف/١٩٩

وذكر القرطبي في تفسيره لهذه الآية [3]: دخل في العفو صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين، وصلة الأرحام وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار.

قال جابر بن سليم: ركبت قعودى ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه بُرْد من صوف فيه طرائق حُمر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: " وعليك السلام " فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمني كلمات ينفعني الله بها. قال: " ادن " ثلاثا، فدنوت فقال: " أعِد علي " فأعدت عليه، فقال:"اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا، وأن تلق أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقى، وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه، فإن الله جاعل لك أجراً وعليه وزرا ولا تسبن شيئا مما خولك الله تعالى "

(١) المرجع السابق ج ٦ صـ٢٤٣.

(٢) رواه البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب حديث الغار (٣٢١٨).

(٣) ج ٧ صـ٣٤٤، ٣٤٥.

وروى البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن الزبير قال:

" ما أنزل الله هذه الآية إلا في أخلاق الناس. وروى سفيان بن عيينة عن الشعبي أنه قال: إن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: ما هذا يا جبريل ؟ فقال: " لا أدري حتى أسأل العالم " وفي رواية " لا أدري حتى أسأل ربي " فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال: " إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك" فنظمه بعض الشعراء فقال:

مكـــارم الأخـــلاق في ثلاثـــة ... من كمـــلت فيـــه فذلك الغني

إعطاء من تحرمه ووصل من ... تقطعـــه والعفـــو عمن اعتدى

وقد روى عن نبينا محمد ﷺ أنه قال:

" أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأن يكون نطقي ذكرا، وصمتي فكرا، ونظري عبرة " [1].

قال تعالى: (وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾)

سورة الشورى/٣٧

قال القرطبي: (أي يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم، قيل: أنزلت في عمر حين شُتم بمكة، وقيل: في أبي بكر حين لامه الناس على إنفاق ماله كله وحين شُتم فحلُم. وعن علي ﷺ قال: اجتمع لأبي بكر مال مرة، فتصدق به كله في سبيل الخير، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت الآية: (فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾) سورة الشورى/٣٦، ٣٧

وقال ابن عباس: شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه شيئا، فنزلت الآية وهذه من محاسن الأخلاق، يُشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه؛ لقوله تعالى في الآية ١٣٤

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ٧ صـ٣٤٦.

من سورة آل عمران: " وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ". وهو أن يتناولك الرجل فتكظم غيظك عنه. وأنشد بعضهم:

إني عفوت لظالمـــي ظلمي ... ووهبت ذاك له على علمي
مـــا زال يظلمـــني وأرحمه ... حتـــى بكـــيت له من الظلم

قال تعالى:

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

سورة الشورى/ ٤٠

(قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة. وذكر أبو نعيم الحافظ عن على بن الحسين رضي الله عنهما قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد أيكم أهل الفضل؟ فيقوم ناس من الناس فيقال: انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون إلى الجنة؛ قالوا: قبل الحساب ؟ قالوا نعم. قالوا: من أنتم ؟ قالوا: أهل الفضل قالوا: وما كان فضلكم ؟ قالوا: كنا إذا جُهل علينا حلمنا، وإذا ظلمنا صبرنا، وإذا سئ إلينا عفونا قالوا ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وذكر الحديث[1].

ومن الأمثلة التطبيقية من حياة النبي ﷺ في الحلم والعفو؛ ما روي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: إن رجلا أتى النبي ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهم به أصحابه فقال رسول الله ﷺ:

" دعوه فإن لصاحب الحق مقالا " ثم قال: " أعطوه سنا مثل سنه " قالوا: يا رسول الله، إلا أَمْثَلَ من سنه، فقال: " أعطُوهُ، فإن من خيركم أحسنكم قضاء "[2]، وقد روى أن هذا الرجل كان يهوديا، وكان قد قرأ في التوراة أن النبي المنتظر يتصف بالحلم، فأغلظ في القول حتى يتأكد من ذلك، وأن الرسول ﷺ قال لأصحابه – بعدما نهاهم عن التعرض للرجل –: إنه كان عليهم مطالبته بحسن الأداء ومطالبة الرجل بحسن الطلب، وإن الرجل تأثر بما رآه من حسن حلم الرسول ﷺ وتأكد من اتصافه بالحلم مثلما ورد بالتوراة ونطق بعد ذلك بالشهادتين.

(١) الجامع لأحكام القرآن – للإمام القرطبي ج١٦ صـ٤٠.

(٢) نضرة النعيم ج٥ صـ١٧٤٦ – رواه البخاري – الفتح٤ (٢٣٠٦) واللفظ له، ورواه مسلم (١٦٠١).

فالمسلم الحق؛ الذي يطيع ربه العظيم ورسوله الكريم ﷺ، يعفو عمن يسئ إليه من جميع الناس، تفضيلا لثواب الله على شفاء غيظه وإجابة نداء الانتقام، ويصفح عمن أساء إليه؛ رجاء لما عند الله من عظيم الأجر، فقد تكفل بإرضائه وإثابته جزاء تجاوزه عن الإساءة وترفعه عن الانتقام، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: " **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ** " سورة الشورى/٤٠، وكما قال الرسول ﷺ: إذا كان يوم القيامة ينادي مناد، ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة، وهم العافون عن الناس.(١)

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية متعددة، في الحث على العفو والصفح وتجنب العداوة والاعتداء، ونكتفي أخيرا بقوله ﷻ:

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ سورة فصلت/٣٤

فهذه الآية واضحة الدلالة على أن صلة المسلم بالناس كلهم، يجب أن تكون طيبة يظللها الحلم، ويحيط بها العفو وكظم الغيظ وحسن المعاملة وتجنب العداوة، (ولئن كانت المشاعر الغريزية للإنسان تدفعه إلى الانتقام والانتصار، وتغريه أن يقابل السوء بمثله، إلا أن الإسلام يهيب بالإنسان أن يسمو إلى منزلة أعظم وأكرم، ينالها المسلم بإيمانه وتقواه، وله بها أعظم الأجر من الله.. لأن المسلم يعلم أن الحلم والعفو منزلة من منازل الإيمان وليس علامة ضعف ولا أمارة جبن، لأنهما سبيل من سبل التهذيب الخلقي ينظف القلب من مشاعر الحقد ويطهره من نزعات السوء، وذلك سمو بالإنسانية إلى أرفع درجة يطبقها الإنسان، فيهذب نفسه ويطهرها من نوازع الشر، وبواعث الانتقام.(٢)

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل، عندما عذبه المأمون، وطلبوا منه الدعاء عليه، إلا أنه قال:

" أشهد أني قد عفوت عن المأمون، وما يضرني أن لا يعذب أحد بسببي ".

ولكن، تبقى كلمة أخيرة؛ إذا التزم المسلم بكظم الغيظ والعفو، ثم تمادى المعتدي في إعتداءاته على النفس

(١) شخصية المسلم – د. مصطفى عبد الواحد صـــ٢٠٠ – الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية – ١٤٠٣هـــ-١٩٨٣م.

(٢) شخصية المسلم كما يصورها القرآن – د. مصطفى عبد الواحد صـــ١٩٩، ٢٠٠.

والمال والعرض، فهل من المناسب استمرار العفو وتحمل الاعتداء المستمر؟، من الطبيعي أن يتم رد اعتداء المعتدي حتى لا يتمادى في خطئه وجبروته ولمنعه من الاستمرار في الاعتداء، وذلك امتثالا لقوله تعالى: "... فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ... ﴿١٩٤﴾ "سورة البقرة/١٩٤

ويلاحظ أنه رغم اعتداء المعتدي، إلا أن الله ﷻ لم يأمر المعتدي عليه، أن يسرف في رد الاعتداء، بل يكون الرد بمثل اعتداء المعتدي، حتى لا يجعله يعاود الاعتداء للرد على ما أصابه من خسارة زائدة على الحد.

فمقابلة المعتدي بالعفو، وإفهامه أنه ليس عن ضعف واستكانة بل إنه فقط لحقن الدماء والعداوة، قد يقضي على الفتنة في مهدها، وينشر السلام في ربوع البادية، وبين أفراد الأسرة والمجتمع والعالم بأسره.

تسامح الرسول ﷺ مع الأسرى:

بعد انتصار المسلمين على الكفار في غزوة بدر، استشار الرسول ﷺ أصحابه في الأسرى، فرأى سيدنا عمر بن الخطاب قتلهم، ضماناً لقوة الأمة الإسلامية، وعدم تعزيز المشركين بقوة إضافية تحارب المسلمين فيما بعد، بينما سيدنا أبو بكر الصديق أشار بأخذ الفدية منهم، وأخذ النبي ﷺ برأي أبو بكر الصديق.

وقد نزل القرآن الكريم بعد ذلك موافقاً لرأي عمر بن الخطاب في قوله تعالى: " مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ " سورة الأنفال/٦٧-٧٠.

وكان المسلمون يقبلون من بعض الأسرى ما عندهم إذا تعذر دفع ما فرض عليهم من الفداء، وأطلق النبي ﷺ بعض الأسرى الذين لم يقدروا على دفع شيء.

أما الأسرى الذين يعرفون القراءة والكتابة، و لم يكن لدى أهليهم أو لديهم مقدرة على الفداء، فقد جعل فداءهم أن يُعلّموا أبناء الأنصار القراءة والكتابة، وقد وردت رواية صحيحة الإسناد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

" كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة" [1].

وقال لرجال قريش حين ظَفِرَ بهم عام الفتح وقد اجتمعوا إليه: ما ظنكم بي قالوا: ابن عم كريم فإن تعف فذاك الظن بك، وإن تنتقم فقد أسأنا، فقال: بل أقول كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ سورة يوسف/٩٢، وأتته هند بنت عتبة تبايعه ﷺ على الإسلام، وقد كانت قد بَقَرَت بطنَ عمِّه حمزة يوم أُحُد، ولاكت كَبِدَه فصفح عنها وأعطاها يده، لبيعتها.

فإن قيل: فقد ضرب رقاب بني قريظة في يوم واحد وهم نحو سبعمائة، فأين موضع العفو والصفح قيل: إنما فعل ذلك في حقوق الله تعالى، وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم، فحكم أن من جرت عليه الموسى [2] قُتل، ومن لم تجر عليه استرق، فقال رسول الله ﷺ: هذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة [3]. فلم يجُز أن يعفو عن حق وجب لله تعالى عليهم؛ وإنما يختص عفوه بحق نفسه [4].

وهكذا يتضح أن الرسول ﷺ، كان يتسامح مع المشركين، منذ بدء المعارك معهم، وكذلك في مختلف مراحل التعامل معهم، مما يدعونا إلى الاقتداء بالرسول ﷺ في تسامحه مع الغير، فضلاً عن المخالفين له، وكذلك من يحاربونه ويسعون إلى القضاء عليه وعلى دعوته الإسلامية النبيلة.

العفو عند دخـــول مكـــة: [5]

طاف الرسول ﷺ بالبيت سبعا فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة، فوقف على بابها وتكاثر الناس في المسجد، فخطبهم وتلا عليهم قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ سورة الحجرات/١٣

ثم سألهم: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟

(١) مسند أحمد ج٤ ص٤٧ (حديث ٢٢١٦) – موسوعة نضرة النعيم ج١ ص٢٩٣.

(٢) أي بلغ مبلغ الرجال فحلق ذقنه.

(٣) يعني من فوق سبع سموات.

(٤) نضرة النعيم ج١ ص٤٤١.

(٥) بتصرف من: حياة محمد – أ. محمد حسين هيكل صـــ٤٢٢.

قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: " فاذهبوا فأنتم الطلقاء "

بهذه الكلمة صدر العفو العام عن قريش وعن أهل مكة جميعا

ما أجمل العفو عند المقدرة؛ ما أعظم هذه النفس التي سمت كل السمو فارتفعت فوق الحقد وفوق الانتقام وأنكرت كل عاطفة دنيا، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الإنسان. هؤلاء قريش يعرف محمد ﷺ منهم من ائتمروا به ليقتلوه، ومن عذبوه وأصحابه من قبل ذلك، ومن قاتلوه في بدر، وفي أحد، ومن حاصروه في غزوة الخندق، ومن ألبوا عليه العرب جميعا، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه إربا إربا لما ونوا في ذلك لحظة. هؤلاء قريش في قبضة محمد ﷺ وتحت قدميه، أمره نافذ في رقابهم، وحياتهم جميعا معلقة بين شفتيه، وفي سلطانه هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد مكة وأهلها في رجع البصر. لكن محمداً. لكن النبي. لكن رسول الله ﷺ ليس بالرجل الذي يعرف العداوة أو يريد بها أن تقوم بين الناس. وليس هو بالجبار ولا بالمتكبر. لقد أمكنه الله من عدوه فقدر، فعفا، فضرب بذلك للعالم كله ولأجياله جميعا مثلا في البر والوفاء بالعهد، وفي سمو النفس سُمُوًّا لا يبلغه أحد

بل إن الرسول ﷺ بعد فتح مكة استثنى ١٧ رجلا من المشركين من رحمته وأمر ساعة دخول مكة أن يُقتلوا ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، كان قد آثر بعضهم الاختفاء ولاذ بعضهم بالفرار، و لم يكن قرار النبي ﷺ قتلهم لحقد منه أو غضب عليهم، فهو لم يكن يعرف الحقد، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها.

فأحدهم عبد الله بن أبي السَّرْح كان قد أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ الوحي، ولكنه أرتد مشركا إلى قريش زاعما أنه كان يزيِّف الوحي حين يكتبه، وعبد الله بن خَطَل كان قد أسلم ثم قتل مولى وارتد مشركا وأمر جاريتيه " فَرْتَنَى " وصاحبتها فكانتا تغنيان بهجاء النبي ﷺ فأمر بقتلهما معه، وعكرمة بن أبي جهل وكان من أشد الناس لددا في خصومة النبي ﷺ والمسلمين خصومة لم تهدأ حتى بعد فتح مكة ودخول خالد بن الوليد من أسفلها[1]

وقد أمر النبي ﷺ بعد دخول مكة ألا يُسَفْك بها دم أو يُقتل فيها أحد غير هذه الطائفة، لذلك اختفى رجالها ونساؤها وفر منهم من فر، فلما استقر الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فُسحة صدر الرسول ومن عفوه الشامل ما رأوا، طمع بعض أصحابه في أن يعفو حتى عن هؤلاء الذين أمر أن يُقتلوا فقام عثمان بن عفان وكان أخا لابن أبي السَّرح للرضاعة، حتى أتى النبي فاستأمن له فصمت الرسول ﷺ طويلا، ثم قال: نعم وأمَّنه. وأسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوج عكرمة بن أبي جهل الذي فر إلي اليمن. واستأمنت له النبي ﷺ فأمنه، فخرجت في طلبه وجاءت به

وعفا النبي ﷺ كذلك عن صفوان بن أمية وكان قد صحب عكرمة في فراره إلى ناحية البحر يستقلانه إلى

(١) بتصرف من حياة محمد – محمد حسين هيكل صـ ٣٨٠.

اليمن، فجئ بهما والسفينة التي تحملهما على أهبة إقلاعها.

وعفا النبي ﷺ كذلك عن هند زوج أبي سفيان التي مضغت كبد حمزة عم الرسول بعد استشهاده في أحد.

كما عفا عن أكثر من أمر بقتلهم[1]

و لم يُقتل منهم إلا أربعة، منهم الحويرث الذي أغرى بزينب بنت النبي حين رجوعها من مكة إلى المدينة ورجلان أسلما ثم ارتكبا بالمدينة جريمة القتل وفرا راجعين إلى مكة مرتدين إلى الشرك وإحدى قينتى ابن خَطَل اللتين كانتا تؤذيان النبي بغنائهما، وفرت الأخرى ثم استؤمن لها.

وفي غداة يوم الفتح عثرت خزاعة على رجل من هُذَيْل وهو مشرك فقتلوه. فغضب النبي ﷺ وقام في الناس خطيبا فقال:

" أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما أو يَعضِد (يقطع) فيها شجرا، لم تُحلَل لأحد كان قبلي ولا حل لأحد يكون بعدي، و لم تُحْلَل لي إلا هذه الساعة غضبا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم إنَّ رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله و لم يُحلِلها لكم يا معشر خُزاعة. ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع لقد قتلتم قتيلا لأدِيَنَّه. فمن قُتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النَّظَرَيْن: إن شاءوا قدمُ قاتله، وإن شاءوا فَعقْلُه (الدية)."[2]

يتضح مما سبق وما أوردناه آنفاً، ومما سنذكره فيما بعد، أن الرسول ﷺ، كان يميل دائماً إلى العفو عن المخطئين، ويدعو المسلمين إلى الاقتداء به في العفو عمن أخطأ نحوهم، وأن هذا العفو كثيراً ما كان يؤتي ثماره في قلوب المخطئين، ومن ذلك ما روته السيرة أن عفو الرسول ﷺ عن كفار قريش عند فتح مكة أدى إلى دخول معظمهم في الإسلام، مما أدى إلى تقوية شوكة المسلمين والإكثار من عددهم، وأصبحوا جميعاً في نصرة الإسلام بدلاً من محاربته والعمل ضده بكافة السبل، وما ذكرناه قليل بالنسبة إلى ما ورد في كتب السنة النبوية، التي تذخر بكثير جداً من المواقف التي تؤكد، أن الرسول ﷺ كان دائماً يقتدي بالله "العفو"، الذي يغفر للمذنبين ويعفو عنهم بمجرد توبتهم توبة نصوحة، وحتى لو تكرر منهم الخطأ.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) بتصرف من حياة محمد – محمد حسين هيكل صفحتي ٤٢٤، ٤٢٥.

الرفـــق بالغـــير:

الرفق بالغير، صفة من الصفات الطيبة، التي تنم عن أخلاق سامية، وقلب طيب ينبض بحب الغير، ويحاول أن يساعده بقدر الإمكان، ويحسن إليه في كافة تعاملاته معه، فلا يعتدى عليه أو يسئ إليه، أي أنه يتعامل معه برفق ومحبة وتسامح.

وأحاديث الرسول ﷺ تؤكد أهمية الرفق، وتدعو دائما إلى أن يتحلى المرء بالرفق في تعامله مع الغير، لما في ذلك من تحقيق الخير لكل الأطراف ونشير إلى عدد من الأحاديث التي تؤكد هذا المعنى:

- عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ [(١)] " من يحرم الرفق يحرم الخير ".
- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال [(٢)] : " إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف "
- عن عائشة، عن النبي ﷺ، قال [(٣)] : " إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله".

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام (الموت) عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله ﷺ مهلا يا عائشة: إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم " [(٤)].

ووصايا الإسلام حول أهل الذمة ونحوهم، تنبئ عن تسامح كبير معهم، وهي باختصار كما بينها الإمام القرافي: " الرفق بضعيفهم وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل التلطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والمذلة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منًّا بهم، لا خوفا وتعظيما، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم وعيالهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعاونوا على دفع الظلم عنهم وإيصالهم لجميع حقوقهم "

(١) رواه مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل الرفق (٤٦٩٤)، ورواه ابن ماجة – كتاب الأدب – باب الرفق ج٢ صـــ١٢١٦.

(٢) رواه مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل الرفق (١٦٩٧)، ورواه ابن ماجة – المرجع السابق.

(٣) رواه ابن ماجة – المرجع السابق (٣٦٧٩)، ورواه البخاري – كتاب استتابة المرتدين وقتالهم – باب إذا عرَّض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ (٦٤١٥).

(٤) متفق عليه (صحيح البخاري كتاب الأدب الباب ٨٠/٧،٣٥ وصحيح مسلم كتاب السلام ١٧٠٦/٤).

ورفق الرسول ﷺ، بالأسرى من غير المسلمين، جعلت كثيرا منهم يعلن إسلامه، لقناعتهم بحسن خلق الرسول ﷺ وصدقه فيما أتى به، ومن ذلك قصة ثمامة بن أُثال، التي ذكرها الإمام مسلم في صحيحه:[1]

فعن سعيد بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة يقول: بعث رسول الله ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أُثال؛ سيد أهل اليمامة. فربطوه بسارية من سواري المسجد. فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال " ماذا عندك ؟ يا ثمامة[2] ! " فقال عندي، يا محمد ! خير. إن تقتل تقتل ذا دم[3] . وإن تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكر. وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ. حتى كان بعد الغد. فقال " ما عندك؟ يا ثمامة ! " قال: ما قلت لك. إن تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكر. وإن تقتل تقتل ذا دم. وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد. فقال " ما عندك ؟ يا ثمامة ! " فقال عندى ما قلت لك. إن تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكر. وإن تقتل تقتل ذا دم. وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ " أطلقوا ثمامة" فانطلق على نخل[4] قريب من المسجد. فاغتسل. ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. يا محمد ! والله ! ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك، فقد أصبح أحب الوجوه كلها إلي. والله ! ما كان من دين أبغض من دينك. فأصبح دينك أحب الدين كله إلى. والله ! ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك. فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة. فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت[5] ؟ قال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا، والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ "[6] .

(١) كتاب الجهاد والسير باب: ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه ج ٣ صـــ١٣٨٦.

(٢) (ماذا عندك ؟ يا ثمامة !) أي من الظن بي أن أفعل بك ؟.

(٣) (إن تقتل تقتل ذا دم) اختلفوا في معناه. فقال القاضي عياض في المشارق، وأشار إليه في شرح مسلم: معناه إن تقتل تقتل صاحب دم، لدمه موقع يشتفي بقتله قاتله، ويدرك قاتله به ثأره، أي لرياسته وفضيلته. وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم. وقال آخرون: معناه تقتل من عليه دم مطلوب به، وهو مستحق عليه. فلا عتب عليك في قتله.

(٤) (فانطلق إلى نخل) هكذا هو في البخاري ومسلم وغيرهما: نخل بالخاء المعجمة. وتقديره: انطلق إلى نخل فيه ماء فاغتسل منه.

(٥) أي أخرجت من دينك ؟

(٦) صحيح مسلم ج٣ صـــ١٣٨٦ – كتاب الجهاد والسير – باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه.

وهكذا يتضح تأثير العفو في النفوس، وجعل قلوب المشركين تنشرح للإسلام وتمتلئ حبا لرسول الله ﷺ ولنا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة، فنقتدي به في شمائله الطيبة لتزداد الدعوة الإسلامية انتشارا، وتتضح المبادئ الطيبة التي يدعو إليها الإسلام بهدف نشر السلام والوئام بين جميع الناس.

النهي عن الاعتداء على المدنيين أثناء الحرب وما قبلها وما بعدها:

إن الإسلام وضع للحرب مع الأعداء نظاما تشريعيا، يمنع المحاربين المسلمين من الاعتداء والبغي والظلم والإضرار بالغير، وقد تضمن ذلك أوامر عديدة تشمل فترة ما قبل الحرب وأثناءه وما بعده:[1]

١- فترة ما قبل الحـــرب:

فلا يصح البدء في الحرب إلا بعد أن يتحقق العداء للمسلمين، وإعداد العدة للاعتداء عليهم، وشبيه بهذا ما يسمى في العرف الدولي الحاضر بالإنذار النهائي، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ لأحد قواده:

" إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث..... "[2]

وقد قال الفقهاء: إننا بهذه الدعوة نعلمهم أننا لا نقاتلهم على أخذ أموالهم وسبى عيالهم، فربما يجيبون إلى المقصود من غير قتال، وقتالهم قبل الدعوة إثم يستوجب غضب الله.

٢ - أثنـــاء الحـــرب:

أمر الرسول ﷺ بعدم الاعتداء – حتى في أثناء الحرب – على النساء والصبيان والرهبان والشيوخ.[3]

٣ - ما بعد الحـــرب:

يحرص الإسلام على تحقيق السلم والطمأنينة في ربوع العالم، وبخاصة فيما بينه وبين كافة البلاد، فهو يطلب من المسلمين أن يدخلوا في السلم كافة ولا يتبعوا خطوات الشيطان، قال تعالى:

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ.. ﴿٦١﴾ سورة الأنفال/٦١

(١) بتصرف من: نظرات إسلامية من ثمار الشيخ محمود شلتوت.

(٢) رواه مسلم باب الجهاد، وأبو داود.

(٣) الجامع لأحكام القرآن – ج ٢ صـــ٧٢٢ وما بعدها.

فالإسلام – حتى في حالة الحرب مع غير المسلمين – لا يريد تنكيلا بالغير ولا تخريبا للممتلكات ولا يرضى للناس أن ينسوا فيها واجب الإنسانية من الرفق والرحمة ورعاية العدل والخوف من الله.

ووفقا لما سبق أن ذكرناه، فإن الإسلام يؤكد ما يلي:

١- عدم جواز قتل المرأة ولا الصبي ولا الشيخ الفاني ولا المقعد ولا الأعمى ولا المعتوه ولا يجيز قتل أصحاب الصوامع ولا الزراع ولا الصناع الذين لا يقاتلون.

٢- عدم جواز المثلة بالقتلى ولا التحريق ولا قطع الأشجار ولا هدم البنيان إلا إذا بدأ بذلك العدو، ونزولا على مبدأ المعاملة بالمثل، وهو مبدأ معمول به حاليا في العلاقات الدولية بين الدول.

٣- ولا يجيز الإجهاز على الجرحى ولا التحريق بالنار وفي وصايا الرسول ﷺ لأحد قواده: " ولا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخرب عامرا، ولا تعقرن شاة إلا لمأكله، ولا تفرقن نخلا ولا تحرقه "، وقوله ﷺ: " وأن النار لا يعذب بها إلا الله" (١).

وروى عن النبي ﷺ أنه قال:

" لا تقتلوا الذرية في الحرب. فقالوا: يا رسول الله: أليسوا أولاد المشركين ؟ فقال: " أو ليس خياركم أولاد المشركين " (٢).

٤- عصمة الذميين والمستأمنين. ويوجب على المسلمين حمايتهم في أنفسهم وفي أموالهم ماداموا في ديار الإسلام.

٥- رعاية الرسل الذين يقومون بالسفارة بينه وبين المحاربين، وشدة الحرص على سلامتهم وتكريمهم والمحافظة عليهم حتى يعودوا إلى مأمنهم، ورفض الاحتفاظ بهم ولو خلعوا أنفسهم من قومهم، وفي سيرة النبي ﷺ شواهد كثيرة على ذلك؛ من أروعها ما يرويه أبو رافع إذ يقول: بعثتني قريش إلى النبي ﷺ، فأتيته فوقع الإسلام في قلبي فرأيت ألا أعود إليهم. فقلت يا رسول الله: لا أرجع إليهم. فقال: " إنى لا أخيس بالعهد ولا احتبس البرد ارجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع إلينا "

(١) رواه البخاري ج٤ ص٦٠، ٧٥.

(٢) تاريخ الطبري ٢٦١/١ – ابن حبان ١٦٥٨.

وبالرغم من موقف الرسول ﷺ، الذي يتصف بالأمانة وعدم الاعتداء وعدم الغدر إلا أن كتب السيرة تروى الكثير من اعتداء القبائل بالقتل أحيانا على الرسل التي أرسلها إليهم رسول الله ﷺ، في حين أن الرسول ﷺ، لم يفعل ذلك إطلاقا، بل إنه عندما قام أحد المسلمين بقتل شخصٍ آخر على ظن أنه من الأعداء ولكنه لم يكن كذلك، فإنه أمر بالدية، وغضب لتسرع المسلم في القتل، رغم الغدر والخيانة التي تلجأ إليها بعض القبائل، ومن أمثلة ذلك:[1]

- " وفد رهط من قبيلة تجاور المدينة قالوا: إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن، وكان النبي ﷺ يبعث من أصحابه كلما دُعِي إلى ذلك ليؤدوا هذه المهمة الدينية السامية، وليدعو الناس إلى الهدى ودين الحق، وليكونوا له ولأصحابه عونا على خصومهم وأعدائهم، لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط وساروا معهم، فلما كانوا جميعا على ماء لِهُذَيْلٍ بالحجاز بناحية تدعى الرَّجيع، غدروا بهم.
- وبعد فترة جاء أبو براء عامر بن مالك إلى النبي ﷺ فعرض عليه أن يسلم فلم يقبل، ولكنه لم يظهر للإسلام عداوة، ولكنه طلب رجالا يدعون أهل نجد إلى الإسلام، ولم يستجب النبي ﷺ لذلك خوفا على رجاله، إلى أن قال أبو البراء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا إلى أمرك. وكان أبو البراء رجلا مسموع الكلمة في قومه لا يخاف من أجاره عادية أحد عليه، فبعث النبي ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في أربعين رجلا من خيار المسلمين، فساروا حتى بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سُليم، ومن هناك بعثوا أحدهم إلى عامر بن الطفيل بكتاب النبي ﷺ، فلم ينظر عامر في الكتاب وقتل الرجل واستصرخ بني عامر ليقتلوا المسلمين، فلما رفضوا لمحافظتهم على ذمة أبي براء، استصرخ عامر قبائل أخرى أجابته وخرجت معه حتى أحاطوا بالمسلمين في رحالهم وقاوم المسلمون حتى قتلوا عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا رجلان؛ أحدهما عمرو بن أمية الذي لقى رجلين في الطريق عند عودته، فحسبهما من القوم الذين عَدَوْ على أصحابه، فقتلهما، وعندما وصل المدينة أمره الرسول بأن يؤدي ديتهما لأنه تبين أنهما عامريان من قوم أبي البراء.

وبالرغم من الغدر والخيانة التي قام بها أعداء الإسلام، إلا أن الرسول ﷺ لم يعاملهم بمثل معاملتهم، بل كان يدعو الله أن يعاقبهم بمثل صنيعهم وينتقم منهم، وكذلك أصحابه من بعده كانوا يوصون الجيوش بعدم

(١) بتصرف من: حياة محمد – أ. محمد حسين هيكل صـ٣٠٥، صـ٣٠٧.

obeikandl.com

الاعتداء وإكرام الرسل، فقد ورد عن أبي بكر الصديق ﷺ مما قاله ليزيد بن أبي سفيان:[1]

" إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وأبدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به.. وامنع من قِبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم... "

مما سبق يتضح أن الإسلام – حتى في حالة الحرب – يتسامح مع مواطني العدو المدنيين وبخاصة النساء والصبيان والرهبان والشيوخ وذوي العاهات، فلا يجوز الاعتداء عليهم، ولا التنكيل بهم، وينهى عن تخريب الممتلكات أو إحراقها، أو الإجهاز على الجرحى باعتبار أنهم لجراحهم توقفوا عن الاعتداء وأصبحوا لا يمثلون خطراً على المسلمين، وفي حاجة إنسانية إلى العلاج والمداواة.

مدح أهل الكتاب – وبخاصة النصارى – والوصية بأقباط مصر:

وردت آيات قرآنية عديدة وكذلك أحاديث نبوية توصي بحسن معاملة الذميين والنصارى، وذلك في مناسبات متعددة وبأساليب مختلفة نشير إليها فيما يلي:

– قال تعالى: (**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴿١٩٩﴾)

سورة آل عمران/١٩٩

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: (قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن: نزلت في النجاشي، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ لأصحابه: " قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي "، فقال بعضهم لبعض "يأمرنا أن نصلي على عِلْج من عُلُوج الحبشة فنزلت الآية، قال الضحاك: " وما أنزل إليكم " القرآن. "وما أنزل إليهم " التوراة والإنجيل. وفي التنزيل: " **أُولَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ** .. ﴿٥٤﴾ " سورة القصص/٥٤

وفي صحيح مسلم:

(١) أبو بكر الصديق – أ. محمد حسين هيكل صـ٢٤٦.

" ثلاث يؤتون أجرهم مرتين – فذكر – رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران "، وقال مجاهد وابن جريج وابن زيد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وهذا عام والنجاشي واحد منهم "[1].

وقد وردت أحاديث نبوية عديدة في الصلاة على النجاشي نشير منها إلى ما يلي:[2]

- عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

إن النجاشي قد مات " فخرج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى البقيع. فصفنا خلفه وتقدم رسول الله ﷺ، فكبر أربع تكبيرات.

- عن عمران بن الحصين، أن رسول الله ﷺ قال: " إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه " قال فقام فصلينا خلفه. وإني لفي الصف الثاني. فصلى عليه صفان.

- قال تعالى في محكم كتابه:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

سورة المائدة/٨٢

قال القرطبي[3] أن سبب نزول هذه الآية ؛ أنها نزلت في النجاشي وأصحابه لما قدم عليهم المسلمون في الهجرة الأولى – حسب ما هو مشهور في سيرة ابن إسحق وغيره- خوفا من المشركين وفتنتهم، وكانوا ذوي عدد. ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك فلم يقدروا على الوصول إليه، حالت بينهم وبين رسول الله ﷺ الحرب. فلما كانت وقعة بدر وقتل الله فيها صناديد الكفار؛ قال كفار قريش: إن ثأركم بأرض الحبشة، فاهدوا إلى النجاشي

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ – صـ٣٢٢.

(٢) سنن ابن ماجه ج ١ – كتاب الجنائز صـ٤٩٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٦ – صـ٢٥٥.

وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعله يعطيكم من عنده فتقتلوهم بمن قُتِل ببدر؛ فبعث كفار قريش عمرو بن العاصى وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا، فسمع النبي ﷺ بذلك، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أُميّة الضَّمْرِيّ، وكتب معه إلى النجاشي[1] فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله ﷺ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم. ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة " مريم" وقاموا تفيض أعينهم من الدمع[2] فهم الذين أنزل الله فيهم " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى " وقرأ " إلى الشاهدين" رواه أبو داود

- قال تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾) سورة آل عمران/٧٥

فالآية دالة على أن من أهل الكتاب من يتمتع بالأمانة، حتى لو ائتمنته على قنطار فإنه سيحافظ عليه حتى يؤديه إليك، وأن منهم من لا يتمتع بهذه الصفة فلا يجب أن نعاملهم جميعا على أنهم من غير ذوي المرؤة والأمانة، بل نعامل كلاً منهم على حسب ما يبدو من تصرفاته وأخلاقه وأحواله

ونشير إلى سبب نزول هذه الآية، الذي ورد في التفسير الكبير للفخر الرازي- وإن كانت العبرة بعموم المعني لا بخصوص السبب – " قول ابن عباس: " أودع رجل عبد الله بن سلام ألفا ومائتي أوقية من ذهب فأدى إليه، وأودع آخر فنحاص بن عازوراء دينارا فخانه فنزلت الآية "[1] .

ثم أضاف الفخر الرازي أن " المراد من ذكر القنطار والدينار ههنا العدد الكثير والعدد القليل، يعني إن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو أؤتمن على الشئ القليل، فإنه يجيز فيه الخيانة:[2]

– ذكر ابن إسحاق في مغازيه أن وفد نصارى نجران – لما وفدوا على النبي ﷺ دخلوا عليه في مسجده بعد

(١) جـ٨ صـ ١٠٠ وعبد الله بن سلام نصراني أما فنحاص فهو يهودي.

(٢) المرجع السابق صـ ١٠٢.

صلاة العصر فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم[1]

- ورد في صحيح مسلم حديثان يوصى فيهما رسول الله ﷺ بأهل مصر ويدعو إلى الإحسان بأهل ذمتها نشير إليهما فيما يلي:

(عن عبد الرحمن بن شماسة المهرى. قال: سمعت أبا ذر يقول: قال رسول الله ﷺ " إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط. فاستوصوا بأهلها خيرا. فإن لهم ذمة ورحما....".

قال فمر بربيعة وعبد الرحمن ابنى شرحبيل بن حسنة. يتنازعان في موضع لبنة. فخرج منها وعن عبد الرحمن بن شماسة، عن أبي نصرة، عن أبي ذر. قال: قال رسول الله ﷺ " إنكم ستفتحون مصر. وهي أرض يسمى فيها القيراط[2] . فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهليها. فإن لهم ذمة[3] ورحما[4] " أو قال " ذمة وصهرا[5] . فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها " قال: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة، فخرجت منها[6])

والحديثان صريحان في الوصية بأهل الذمة في مصر، إلا أن فيها أيضا علامة من علامات نبوته ﷺ وإخباره بالغيب.

واقتداء برسول الله ﷺ، كان عمر بن الخطاب يعدل بين المسلم وغير المسلم، وكان يقتص من المسلم حتى ولو كان المسلم المعتدي ابن والي البلد، وبذلك يتحقق العدل بأسمى معانيه، فعن أنس بن مالك، كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، قال: ومالك؟ قال أجرى عمرو بن العاص

(١) زاد المعاد لابن القيم ٢٩٦/٣- ٦٣٨/٣ ابن كثير في التفسير ٣٦٧/١- ٣٦٨

(٢) (القيراط) قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما. وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به.

(٣) (ذمة) الذمة: هي الحرمة والحق. وهي هنا بمعنى الذمام.

(٤) (ورحما) الرحم لكون هاجر، أم إسماعيل، منهم.

(٥) (وصهرا) الصهر لكون مارية، أم إبراهيم، منهم.

(٦) صحيح مسلم ج٤ صـ١٩٧٠ باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر.

الخيل بمصر فأقبلت[1] فرس لي فلما تراءاها الناس قام محمد ابن عمرو فقال: فرسي ورب الكعبة، فلما دنا مني عرفته فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام يضربني بالسوط ويقول: خذها، خذها، وأنا ابن الأكرمين، قال: فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس ثم كتب إلى عمرو، إذا جاءك كتابي هذا فأقبل معك ابنك محمداً، قال: فدعا عمرو ابنه فقال: أحدثت حدثا ؟ أجنيت جناية ؟ قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك. قال: فقدما على عمر، قال أنس: فوالله إنا عند عمر بمنى إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ؟ فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري ؟ فقال: ها أنذا. قال: دونك الدرة اضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين، قال: فضربه حتى أثخنه ثم قال: أجلِها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربني، فقال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، أيا عمرو؛ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟ ثم التفت إلى المصري فقال: انصرف راشدا فإن رابك ريب فاكتب إلي[2].

وفي خطبة أخرى قال رسول الله ﷺ: (من صلى علي صلى الله عليه وملائكته عشرا، ومن أحسن إلى مسلم أو كافر وقع أجره على الله، في عاجل دنياه أو آجل آخرته..)[3].

وقد سئل الشيخ محمد متولى الشعراوي عن أبعاد الصلة بين المسلمين والنصارى، فقال فضيلته: (لقد استقبل الإسلام ما نسميهم أهل الكتاب من النصارى استقبالا سمحا كريما، واستقبال سلام وأمان، ولقد كرم الإسلام عيسى بن مريم، ونفى الإسلام عن عيسى كل ما يمكن أن يكون سببا في الإذلال، أو أن تتهم به أمه.

وكرم الإسلام المسيحية، وذلك ليقر مبدأ التقاء السماء بالأرض. لذلك نجد أن الفرس الذي هم الأبعد عن احترام الإسلام، كانوا يمثلون المجوسية والإلحاد. وكان الروم الذين يمثلون المسيحية وأهل الكتاب كانوا أقرب إلى قلب رسول الله والمؤمنين برسول الله ﷺ، ذلك لأن الروم كانوا من أهل الكتاب. فلما نشبت المعركة بين الروم وفارس، وتمت هزيمة الروم على يد الفرس حزن الرسول ﷺ حزنا شديدا، وحزن المسلمون)[4].

---

(١) فأقبلت: يعني سبقت.

(٢) سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – لابن الجوزى صـ١٣٠.

(٣) خطب الرسول ﷺ – محمد خليل الخطيب صـ١٣٥.

(٤) الفتاوى – كل ما يهم المسلم في حياته يومه وغده – محمد متولي الشعراوي – تقديم وتعليف د. السيد الجميلي صـ١٣٥، ١٣٦.

تكريم الإنسان والحفاظ على حقوق الأقليات في المجتمع الإسلامي:

لقد كرم الله ﷻ بني آدم على كثير من خلقه، فقال تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ سورة الإسراء/٧٠

وقد سخر الله للإنسان الكون والحيوانات والشمس والقمر والثمرات بمختلف أنواعها والبحار ليأكلوا منها لحما طريا وتسير فيها الفلك ويستخرجوا منها حلية يلبسونها، والنجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، وسخر له النحل والأنعام، إلى غير ذلك من الخيرات التي أفاض بها الله ﷻ على الإنسان، يتمتع بها بصرف النظر عن جنسه وعقيدته ولونه، وأرسل الله الرسل لإسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة، وليهتدي إلى صراطه المستقيم، لأنه بعقله وفطرته فقط، لا يهتدي بسهولة إلى الحق والصواب، في ضوء المعتقدات الموروثة وتأثيرات السلف على الخلف، مما يجعل مخالفة معتقدات الآباء شيئا عسيرا، لولا عناية الله وهدايته عن طريق الأنبياء والرسل.

وقد قضى الإسلام قضاء مبرما على كافة أنواع التمييز العنصري القائم على اختلاف اللون أو الجنس، فالأبيض كالأسود والعربي كالأعجمي لا يتفاضلون ولا يتمايزون إلا بالتقوى والعمل الصالح، على عكس ما نراه في كثير من الدول الغربية الذين يدعون الاهتمام بحقوق الإنسان والحرية والمساواة إلا أنهم عند التطبيق العملي يميزون بين الناس بسبب اختلاف ألوانهم أو أجناسهم.

لذلك فإن غير المسلم يعيش مكرما في البلاد الإسلامية، " لا يجوز لأحد أن ينتقصه أو ينتهك عِرضه أو ماله أو دمه، أو يجبره على ما يكره، قال تعالى: لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ.. ﴿٢٥٦﴾ سورة البقرة/٢٥٦، وقال المصطفى ﷺ حاثا على استقرار وتلاحم المجتمع بكافة عناصره: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما) (١).

وقال ﷺ: (ألا من ظلم معاهداً أو انتقص منه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) (٢).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود ج٣ (٣٠٥٢).

ومن مظاهر التكريم نهى الإسلام عن التعذيب سواء كان المعذَّب مسلما أو ذميا، روى عروة بن الزبير أن هشام بن حكيم وجد رجلا وهو (وال) على حمص يشمس ناسا من القبط في أداء الجزية، فقال: ما هذا؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(إن الله يُعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا)[1]

ولو لم يعرف هشام أن هذا الوعيد يشمل المعذبين من أهل الذمة، كما يشمل المسلمين لما ذكر به الوالي الذي كان يقوم – عن جهل بقواعد الإسلام السمحة – بتعذيب بعض القبط)[2] .

ومما يؤكد التزام المسلمين بمبادئ التسامح في معاملة الأقليات من غير المسلمين، أن التاريخ يشهد بحسن معاملة أصحاب الديانات من اليهودية والنصرانية والمجوس الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي قروناً عديدة، محفوظة عهودهم وحقوقهم كاملة، دون اضطهاد أو محاولة الضغط عليهم لتغيير عقائدهم، ولم يفعلوا معهم كما فعل بعض الحكام من الغرب الذين اضطهدوا المسلمين وبعض أصحاب الديانات الأخرى لتعصبهم لعقيدتهم وعدم قبول أي أتباع الديانات الأخرى، وعدم التسامح معهم.

الذميون والمحافظة على أمورهم الضرورية:

من الأمور المتفق عليها بين جمهور الفقهاء، أن هناك مقاصد عامة يجب المحافظة عليها لجميع الناس؛ لأنها تحقق لهم منافعهم وتدفع عنهم المفاسد، وهذه المقاصد العام، ضرورية، لأنها لا يمكن الاستغناء عنها في قيام المجتمع، بحيث " إذا فقدت اختل نظام الحياة وعمت الفوضى وانتشر الفساد. وهذه الأمور الضرورية خمسة، وهي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال"[3] .

وهذه الأمور الضرورية تتم المحافظة عليها لجميع مواطني الدولة، فقد رأينا أن الإسلام يحمى حرية العقيدة لغير المسلمين فلهم حرية اختيار عقيدتهم وممارسة شعائر دينهم، ولا يجوز إكراههم على ترك عقيدتهم واعتناق الإسلام.

---

(١) المرجع السابق ج٣ (٣٠٤٥).

(٢) نضرة النعيم – ج٤ صـ١١٤٧.

(٣) أصول الفقه الإسلامي – زكي الدين شعبان – صـ٣٨٢.

ويشهد بذلك كثير من رجال الدين المسيحي المنصفين فمثلا:[1]

"يقول البطريرك (عيشو بايه) عام ٦٥٦ هجرية: "إن العرب الذين مكنهم الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون"، ويقول أرنولد: وحدث أن هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر "، ويقول ريتشارد ستيبز من أبناء القرن السادس عشر: " إن الأتراك سمحوا للمسيحيين جميعا للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدمة في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جدا "

كما حافظ الإسلام على نفس غير المسلم ومنع الاعتداء عليه، وجعل عقوبة الاعتداء عليه كعقوبة الاعتداء على المسلم.

وحرم الإسلام كل المأكولات أو المشروبات التي تؤثر على صحة الإنسان وعلى عقله كلحم الخنزير وشرب كل المسكرات والمخدرات التي تذهب بالعقول، إلا أنه لم يعاقب غير المسلم على تناولها لاعتقاده بعدم حرمتها، وتركه ليقرر بنفسه ما فيه مصلحته، وبخاصة عند معرفة الاكتشافات العلمية الحديثة التي أكدت الأضرار الصحية العديدة التي يُصاب بها آكل لحم الخنزير، وكذلك مشاهدة ما تفعله الخمر بعقول شاربيها.

روى أن بلالا قال لعمر بن الخطاب: أن عمالك يأخذون الخمر والخنازير في الخراج فقال لا تأخذوا منهم، ولكن ولوهم بيعها، وخذوا أنتم من الثمن.[2]

وتأكيدا لترك الخمور للذميين باعتبار أن شربها – دون السكر- مباح في عقيدتهم، قال أبو عبيد[3] : " إن المسلمين كانوا يأخذون – من أهل الذمة- الخمر والخنزير، من جزية رؤوسهم وخراج أرضيهم، بقيمتها، ثم يتولى المسلمون بيعها، فهذا الذي أنكره بلال ونهى عنه عمر، ثم رخص لهم أن يأخذوا ذلك من أثمانها، إذا كان أهل الذمة المتولين لبيعها، لأن الخمر والخنازير مال من أموال أهل الذمة، ولا تكون مالا للمسلمين."

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة؛ أن ابعث إلي بفضل الأموال التي قبلك من أين دخلت ؟ فكتب

(١) الإسلام – سعيد حوى ج٢ صـــ٢.

(٢) كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام – صـــ٥٢.

(٣) المرجع السابق.

إليه بذلك، وصنفه له: فكان فيما كتب إليه: من عُشر الخمر أربعة آلاف درهم قال: فلبثناها ما شاء الله، ثم جاء جواب كتابه: أنك كتبت إلى تذكر من عشور الخمر أربعة آلاف درهم، وأن الخمر لا يعشرها مسلم، ولا يشربها، ولا يبيعها، فإذا أتاك كتابي هذا فاطلب الرجل فأرددها عليه فهو أولى بما كان فيها، فطلب الرجل فردت عليه الأربعة آلاف وقال استغفر الله، إني لم أعلم[1]

وللأسف فإن هناك كثيرا من العوامل والمؤثرات الخارجية – يحركها مفسدون – تؤثر على تفكير وعقل الإنسان، فتوجهه إلى الناحية التي تريدها، لذلك فهي تأخذ بتفكيره وبإرادته إلى ما يريدون هم، في حين أنهم لو تركوه بتفكيره السليم وبسريرته النقية، فإنه سيهتدي إلى القرار الصحيح، ومن وسائل التأثير على عقل الإنسان[2]:

١- إباحة بيع الخمور في كثير من الدول الإسلامية، ولا يتم توعية المواطن بأضرارها وحرمتها بل بالأضرار المؤكدة التي أثبتها العلم الحديث، وكذلك الدخان الذي يشترك مع الخمر في أضراره وحرمته – وإن كان بنسبة أقل – إلا أن معظم دول العالم تشجع عليه.

٢- تغذية عقل المواطن بمجموعة كبيرة من الأخطاء والأضاليل، تنشرها وسائل الإعلام المختلفة، بحيث يعتاد عليها المواطن، وبخاصة عندما يقرأها ويراها ويسمعها لسنوات وسنوات.

٣- الإساءة إلى العقل في كثير من بلدان العالم، إما بغرض نوع من الفكر لا يتم السماح لأحد بمخالفته أو التعرض له بأي نقد أو مناقشته، وإما بإطلاق حرية النقد لكل شئ، حتى لو خالف الدين أو المعقول.

كما حرم الإسلام الاعتداء على المال والعرض، بالنسبة لأي شخص مسلما كان أم غير مسلم فحرم السرقة والغش والخيانة والربا وكل ما فيه أكل أموال الناس بالباطل، وحرم الزنا ومقدماته، ومنع الاعتداء على النساء مهما كانت دياناتهن وعقيداتهن، منعا من ارتكاب المحرمات التي يُعاقب الله عليها في الدنيا والآخرة، وحفظا للغير من الاعتداء عليه ليعيش في حياة آمنة مطمئنة، لا يخشى من أي اعتداء عليه.

وقد سبق أن أشرنا إلى وصايا الرسول ﷺ بأهل الذمة، ونشير هنا أيضا إلى ما روى عن على بن أبي طالب

---

(١) المرجع السابق صـ٥٣.

(٢) بتصرف من: كتاب الإسلام – سعيد حوى – ج٢ صـ٤.

عندما استعمل رجلا على بلدة تُسمى عكبرى[1] فقال له على رؤوس الناس، "إني كنت أمرتك بأمر، وأني أتقدم إليك الآن، فإن عصيتني نزعتك، لا تبيعن لهم في خراج حمارا ولا بقرة، ولا كسوة شتاء ولا صيف، وأرفق بهم، وافعل بهم، وافعل بهم".

وكذلك ما روى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى واليه بالبصرة:[2]

" وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه، وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. فلو أن رجلا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق. وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه "

وقال عمر بن الخطاب في وصيته عند موته:[3] " أوصى الخليفة من بعدي بكذا وكذا وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ خيرا: أن لا يقاتل من وراءهم، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم "

وسئل الشعبي عن امرأة من أهل الذمة سباها العدو، فصارت لرجل من المسلمين في سهمه، قال: أرى أن ترد إلى عهدها وذمتها[4]

يتضح مما سبق أن جمهور الفقهاء متفقون على أن هناك مقاصد عامة يجب المحافظة عليها لجميع الناس بصرف النظر عن معتقداتهم وأنه يجب التسامح مع غير المسلمين، ومعاملتهم معاملة متساوية كباقي المواطنين، والمحافظة على أنفسهم وأموالهم، وعدم التضييق عليهم في مأكولاتهم ومشروباتهم ومعاملاتهم ولا تكليفهم فوق طاقتهم، ولا يكون اختلافهم في العقيدة سبباً لحرمانهم من أي حق من حقوق المواطنين.

(١) بلدة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، قاله ياقوت في معجم البلدان– كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٤٧.

(٢) المرجع السابق صـ٤٨.

(٣) رغم أن قاتله ليس مسلما.

(٤) المرجع السابق صـ١٢٧.

مثالان يدلان على حلم الرسول ﷺ وتسامحه وعفوه ورحمته وبعد نظره في تعامله مع المشركين والمنافقين:

عند قراءاتي في كتب السيرة لفت نظري مواقف للرسول ﷺ مع بعض رجال من كفار قريش خلال أكثر من عشرين عاما؛ الرسول ﷺ، يتلقى الإهانات والإساءات المتكررة من العديد من رجال قريش وغيرهم، ولكنه لا يقابل ذلك إلا بالحلم والعفو ولا يدعو عليهم ولا يلعنهم، على أمل أن يشرح الله صدورهم للإيمان، أو – على الأقل – يبعث الله من أصلابهم من يوحد الله تعالى.

ونكتفي بأن نشير باختصار إلى اثنين من هؤلاء الرجال، وردت الإشارة إليهما في كتب السيرة، فنجدهما لا يجدان مناسبة إلا عارضا الرسول ﷺ في دعوته ووقفا أمام كل ما يحقق الخير للإسلام والمسلمين وتكلما ضد الرسول ﷺ بكل ما أوتيا من قوة واستطاعة، وبالرغم من ذلك عندما يقدر عليهم الرسول أو يقعا تحت قبضته لا يجدا منه إلا كل العفو والرحمة، عسى الله أن يبعث من أصلابهما من يوحد الله ويؤمن به ويحسن إسلامه، أو يشرح الله صدرهما للإسلام ويتأثر بذلك جمع غفير من قبيلتهما فيزداد الإسلام قوة ومنعة وانتشاراً.

ونشير فيما يلي إلى لمحات من مواقف كل من سهيل بن عمرو وعبد الله بن أَبَيٍّ بن سلول فيما يلي:

١- سهيل بن عمرو:

سهيل بن عمرو بعد بعثة النبي ﷺ لم يستجب لدعوة الإسلام واستمر على الشرك وكان متكلما جيداً، يؤثر في الناس ببلاغته وحسن أسلوبه، وكان يقف خطيبا يهجو محمدا ﷺ ويحذر الناس من الإيمان به، ويصفه بقبيح الصفات، إلا أن الرسول ﷺ كان يتجاهله كما تجاهل غيره، و لم يلق بالا لكل هذه التفاهات، واستمر الحال كذلك إلى أن وقع **سهيل بن عمرو** أسيراً لدى المسلمين في غزوة بدر الكبرى، وأصبح تحت رحمة الرسول ﷺ، فهل ينتهز النبي ﷺ ذلك، ويعاقبه أشد العقاب، أو يقتله ؟ لم يحدث أي شئ من ذلك، بل إن عمر بن الخطاب ﷺ قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، دعني أنزع ثَنِيَّتَيْ سُهيل بن عمرو فيدلَعُ لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا فقال له الرسول ﷺ – رغم ما أصابه منه سابقا من إهانة وإساءة –: "لا أُمثل به فيمثل الله بي وإن كنتُ نبيا "[1].

وبعد غزوة بدر الكبرى وانتصار المسلمين على قريش رغم قلة عددهم وعدتهم أخذوا كثيراً من أسرى المشركين ومنهم **سُهَيل بن عمرو** مجموعة يداه إلى عنقه بحبل كبقية الأسرى، وفرق النبي ﷺ الأسرى بين أصحابه

(١) حياة محمد – أ. محمد حسين هيكل – صـ٢٧٥.

وقال لهم: " استوصوا بهم خيراً "، و لم يختص سهيل بن عمرو بأي سوء في المعاملة، بل كانت الوصية خيرا للجميع.

بل إن الرسول ﷺ استشار الصحابة في أمر الأسرى ومنهم من رأى أن يقتلوهم، لأن منهم الأقوياء الأشداء في الحرب، حتى لا يكونوا عونا للكافرين عليهم ومنهم من رأى الفداء، ليستفيد المسلمون من هذه الأموال في شراء ما يلزمهم، وقد انحاز الرسول ﷺ إلى الرأي القائل بأخذ الفدية، و لم يأمر بقتلهم رغم ما سبق أن فعلوه مع المسلمين من إيذاء وتعذيب واستيلاء على أموالهم ومنعهم من الهجرة، إلى غير ذلك من وسائل التنكيل والإساءة.

– موقف آخر متشدد **لسهيل بن عمرو**، بعد حوالي ست سنوات من الهجرة، وبعد أن أخذ المسلمون الفداء وأعادوه إلى قومه، وعندما أذن الرسول ﷺ بالحج في شهر ذي القعدة وخرج معه حوالي ١٤٠٠ من المسلمين، إلا أن قريش اعترضت على دخولهم مكة هذا العام وأوفدت **سُهيل بن عمرو** ممثلا لهم، للتفاوض مع الرسول ﷺ، وطالت المحادثات بينه وبين الرسول ﷺ بسبب تشدد **سُهَيل** وتساهل النبي ﷺ في كثير من المسائل مما جعل عمر بن الخطاب وغيره كثيرون يستشيطون غضبا، وعندما بلغ الرسول ﷺ ذلك قال لعمر[1] : "أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني". " ومازاد في حفيظة بعض المسلمين أن الرسول ﷺ دعا عليَّ بن أبي طالب وقال له:

" اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " فقال **سُهيل**: " أمْسِكْ لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم " قال رسول الله ﷺ " اكتب باسمك اللهم "، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله **سُهيل بن عمرو** " فقال سهيل: " أمْسِك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك " قال رسول الله:

" اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ".

وكان قد تم الاتفاق على أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليِّه رده عليهم، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامَهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قُرُبها ولا سلاح غيرها.

وما كاد هذا العهد يوقع حتى طلب أبو جندل **بن سُهَيل بن عمرو** أن ينضم إلى المسلمين، ولكن الرسول ﷺ، التزم بالعهد وطلب منه اللحاق بقريش وقال له: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من

(١) بتصرف من كتاب حياة محمد صـــ٣٧٤، نضرة النعيم ج١ صـــ٣٣٨.

المستضعفين مخرجا. إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم " وعاد أبو جندل لقريش وعاد أبوه إلى مكة.

وبعد فترة من التزام الرسول ﷺ بهذا العهد، برده المسلمين الذين يأتون للمدينة بغير إذن وليهم، إلا أنهم لم يرجعوا لمكة وتجمعوا في مكان يسمى "العيص" وهو مكان على ساحل البحر في طريق قريش إلى الشام، وجعلوا يقطعون على قريش طريقها، وكانوا لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا أخذوها، هناك ألحت قريش في الرجاء للنبي ﷺ أن يأوي إليه هؤلاء المسلمين، حتى يتركوا الطريق آمنا.

وبذلك نزلت قريش طواعية عن الشرط الذي تمسك به **سُهَيل بن عمرو**، حيث تبين لها أنه في غير صالحها.

وهكذا تأكد المسلمون وكل من كان معارضا لصلح الحديبية أن ما أقره الرسول ﷺ، كان خيراً كثيراً للمسلمين وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، سواء في معاملته **لسُهيل بن عمرو** أو مع قريش بصفة عامة.

- وعندما عاد الرسول ﷺ في العام التالي وأدى العمرة هو والمسلمون وكانوا حينئذ حوالي ألفين ومكثوا حول الكعبة الأيام الثلاثة التي تم الاتفاق عليها في عهد الحديبية، وخلال هذه الأيام عرض العباس بن عبد المطلب على رسول الله ﷺ أن يتزوج ميمونة خالة خالد بن الوليد، لأنها اختارت الإسلام ووافق رسول الله ﷺ، حينئذ أوفدت قريش **سُهيل بن عمرو** ورجلاً آخر يطلبان خروج المسلمين لانقضاء الأجل المحدد، فقال لهما الرسول ﷺ " ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه " لكن **سُهيل بن عمرو** والذي معه ردا: لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا "، وخرج الرسول ﷺ والمسلمون تنفيذا لسابق اتفاقهم مع قريش.
- واستمرت عداوة **سُهيل بن عمرو** للإسلام وللمسلمين حتى بعد دخول المسلمين مكة، واستسلام معظم أهلها إلا أنه صمم على مقاومة ومحاربة المسلمين وعدم الاستسلام لهم، أو دخول الإسلام ومعه نفر قليل من المشركين وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان، ولكنهم ما لبثوا أن ولوا الأدبار أمام خالد بن الوليد ﷺ.
- وبعد غزوة حنين وحصار الطائف، وزع الرسول ﷺ الغنائم، وأعطى من خُمُسَه الذي له إلي الذين كانوا إلى أيام أشد الناس عداوة له نصيبا على نصيبهم فأعطى مائة من الإبل لكل منهم، وهم من أشراف ورؤساء العشائر، ومن هؤلاء **سُهيل بن عمرو**، وأعطى خمسين من الإبل من كانوا دون هؤلاء شأنا ومكانة، ويتبين من ذلك أن الرسول ﷺ لم يعامل **سُهيل** بسابق عداوته للإسلام، إنما منحه مثلما منح غيره من أشراف العشائر، تأكيداً

لتسامحه وعفوه عن كل من أساء إليه[1].

- ثم نشير أخيرا إلى موقف طيب **لسهيل بن عمرو** – بعد إسلامه – كأنما يسره الله له، ليكفر عن إساءاته السابقة للمسلمين، ومحاولته إبعاد الناس عن الإسلام، حيث وقف خطيبا للناس، بعد أن ذاع النبأ بموت النبي ﷺ في المدينة، وترامى الخبر إلى القبائل المحيطة بها، واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق، وتبلبلت عقائد المستضعفين من العرب وهم أهل مكة، بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك، حتى خافهم عتَّاب بن أسيد عامل النبي على أم القرى فتوارى عنهم، ولولا أن قام **سُهيل بن عمرو** خطيبا بينهم يقنع الناس بالثبات والاستمرار في الإسلام، بما أوتى من قوة في الإقناع وحجة في الخطابة وبلاغة في القول، كان قد استخدمها متعاونا مع الباطل ضد الإسلام في أول دعوته، وها هنا يستخدمها بعون الله وتوفيقه ضد الباطل ونصرة للإسلام وللمسلمين، فوقف خطيبا بين الناس وقال بعد أن ذكر وفاة النبي ﷺ: "إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابَنا ضربنا عنقه، ثم قال: يا أهل مكة كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من ارتد، والله لَيُتمَّنَّ الله عليكم هذا الأمر، كما قال رسول الله ﷺ – لما رجعوا عن ردتهم "[2].

وهكذا كسب الإسلام مسلما نافعا، نتيجة حلم الرسول ﷺ وعفوه، واستمراره في معاملة أحد المشركين بالحسنى، سنوات طويلة، وعدم استجابته للانتقام منه والثأر منه، لمواقفه العدائية للإسلام والمسلمين، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة الحسنة.

٢– عبد الله بن أُبَيَّ بن سلول:

- كان **عبد الله بن أُبَيَّ بن سلول** من الخزرج، وكان يستعد قبل أن يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أن يتوج ملكا عليها، لما له من سلطان في المشركين من الأوس والخزرج وكان حليفا لكل من المسلمين واليهود، غير أن هجرة الرسول ﷺ أضاعت عليه هذه الفرصة فقد التف أهل المدينة حول الرسول ﷺ ثم قامت معركة (بدر) بين المسلمين ومشركي مكة، وانتصر المسلمون في هذه المعركة انتصاراً حاسما، رفع من قيمة المسلمين في المدينة، وعزز مواقفهم، ووجد **عبد الله بن أبي بن سلول**، أن الإسلام يسير في طريق صاعداً، وأنه ينبغي أن يكون له دور

(١) الجامع لأحكام القرآن – للقرطبي ج ٨ صـــ١٧٩ .

(٢) حياة محمد – أ. محمد حسين هيكل صـــ ٥١٣.

في المجتمع الجديد فأعلن إسلامه، وهو يطوي بين جوانحه النفاق، وأمر أعوانه من المنافقين إعلان إسلامهم، حتى لا يأخذ المسلمون منهم موقفا، وبذلك أصبح هؤلاء المنافقون يضمرون شيئا ويظهرون شيئا آخر.

- وكانت هذه الجماعة المنافقة برئاسة **عبد الله بن أبي بن سلول**، تتصل باليهود، وكل الناقمين على المسلمين، ليكيدوا لهم، ويتآمروا ضدهم إذا ما حدث في الأمور ما يستدعي وقوفهم ضد الإسلام والمسلمين، وكان الرسول ﷺ يعرف ذلك كل المعرفة ولكنه ترك أمرهم لله، فالسرائر يملكها الله ﷻ وكان ﷺ يقول: (لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس أو أكشف عن أسرارهم).

لذلك كان الرسول ﷺ بالرغم من معرفته بالمنافقين، وعلى رأسهم **عبدالله بن أبي بن سلول** إلا أنه كان يستجيب أحيانا لوساطته ويستمع لمشورته.

فبعد حصار بني قينقاع وتشاور الرسول ﷺ حينئذ مع المسلمين فيما يفعل بيهود بني قينقاع بعد تآمرهم على المسلمين بعد غزوة أحد، ورأى كبار المسلمين أن يُقتلوا جميعا، إلا أن **عبد الله بن أبي بن سلول** أخذ يلح على الرسول ﷺ ليعفوا عنهم، وقد استجاب الرسول ﷺ لطلبه، واكتفى بإجلائهم عن المدينة تاركين سلاحهم وبعض أموالهم.

- كما أن **عبد الله بن أبي بن سلول** نصح الرسول ﷺ، قبل غزوة أحد بعدم الخروج من المدينة والتحصن بها وقال:

" لقد كنا يا رسول الله ﷺ نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة، ونشبك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن من كل ناحية، فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا في السكك، إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضَّت علينا قط وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منها. فدعهم يا رسول الله وأطعني في هذا الأمر، فإني ورثت هذا الرأي عن أكابر قومي وأهل الرأي منهم" [1].

إلا أن الرسول ﷺ أخذ برأي الأغلبية بعد أن استشارهم رغم أنه كان يتفق في الرأي مع **عبد الله بن أبي بن سلول** في عدم الخروج من المدينة.

ونشير فيما يلي لمواقف **لعبد الله بن أبي بن سلول**، خرج فيها عن طاعة الرسول ﷺ وبالرغم من ذلك لم يحاسبه النبي ﷺ، وتركه يعود لضميره ولصوابه:

(١) حياة محمد – أ. محمد حسين هيكل – ص٢٨٩، ٢٩٠.

- بعد أن خرج الرسول ﷺ لملاقاة قريش متجها إلى أحد، لقى كتيبة لا يعرف أهلها، فسأل عنها فقيل له: إنهم حلفاء ابن أبي من اليهود فقال عليه السلام: " لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يُسلموا " فعاد اليهود إلى المدينة وهم معترضون على عدم سماع الرسول ﷺ لنصيحة **عبد الله بن أبي بن سلول** وتفضيله الرأي الآخر من بعض شباب المسلمين، وأثر هذا الكلام في **عبد الله بن أبي بن سلول** فما لبث أن انخذل مع كتيبة من أصحابه وبقى النبي ﷺ ومعه سبعمائة من أصحابه أمام ثلاثة آلاف قرشي.
- عندما ائتمر اليهود من بني النضير بالرسول ﷺ بعد غزوة أحد، وأرسل إليهم ﷺ رسولاً ليعلنهم بإخراجهم من المدينة بعد نقض العهد وبدأوا في الإعداد لجمع متاعهم لمغادرة المدينة، إلا أن **عبد الله بن أبي بن سلول** أرسل لهم رسولاً يدعوهم لعدم الخروج والتحصن بحصونهم، ووعدهم أنه سيمدهم بعدد كبير من قومه والعرب ليؤازرهم ويدافعوا عنهم حتى آخر رجل منهم، مما جعل بني النضير يتمسكون بحصونهم ويرفضون المغادرة، نتيجة رسالة **عبد الله بن أبي بن سلول**، ولكنه تخلى عنهم عندما حاصر المسلمون بني النضير، كما تخلى عن بني قَينُقاع من قبل وولى مدبرا خوفا من المسلمين.(١)
- موقف آخر **لعبد الله بن أبي بن سلول** بعد غزوة المصطلق – وهم قوم على مقربة من مكة–، وفرارهم أمام المسلمين، أن تشاجر أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ورجل من الخزرج، الذي جعل يصيح: يا معشر الأنصار، ويقول أجير عمر: يا معشر المهاجرين، وسمع **عبد الله بن أبي بن سلول** النداء وكان قد خرج مع المنافقين في هذه الغزوة ابتغاء الغنيمة، فثار ما في نفسه على المهاجرين وعلى محمد ﷺ وقال لجلسائه:

" لقد كاثرنا المهاجرين في ديارنا والله ما أعُدُّنا وإياهم إلا كما قال الأول: "سَمِّن كلبك يأكلك " أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجَن الأعز منها الأذل " ثم قال من حضر من قومه: "هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم " ومشى بحديثه هذا ماش إلى رسول الله ﷺ بعد فراغه من عدوه. وكان عنده عمر بن الخطاب فهاج عمر لما سمع وقال: مُر به بلالا فليقتله. هنا ظهر النبي ﷺ كدأبه مظهر القائد المحنَّك والحكِم البعيد النظر إذ التفت إلى عمر وقال: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا: إن محمداً يقتل أصحابه " .(٢)

وعندما علم **عبد الله ابن أبي بن سلول** أن الرسول ﷺ علم بكل ما قاله، ذهب إليه وأنكر أنه تحدث بشئ.

---

(١) حياة محمد – محمد حسين هيكل – ص ٣٠٩.

(٢) حياة محمد – محمد حسين هيكل – ص ٣٥٣.

وأثناء عودة المسلمين إلى المدينة نزلت الآيتان ٧، ٨ من سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

بعد نزول هذه الآيات وثبوت نفاق **عبد الله بن أبي بن سلول** خاف ابنه عبد الله أن يَقتل أباه أحد المسلمين فذهب إلى رسول الله ﷺ قائلا له: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل **عبد الله بن أبي بن سلول** فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار"

فرد عليه الرسول ﷺ: إنا لا نقتله بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا".(١)

وتسامع الناس بموقف الرسول ﷺ وبدأوا يشعرون أن **عبدالله بن أبي بن سلول** قد بلغ الذروة في النفاق وأن سلوكياته لا تليق برجل كريم فكانوا يعنفونه ويزدرونه ويحتقرون تصرفاته، فقال الرسول ﷺ لعمر بن الخطاب وهو يرى موقف الناس من هذا المنافق: " كيف ترى الآن يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له أنف، لو أمرتُها اليوم بقتله لقتلته " فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

- بعد غزوة بني المصطلق وعند العودة إلى المدينة، تخلفت السيدة عائشة عن الهودج، بسبب عقد لها انسل من عنقها، فرجعت تبحث عنه، ولم يتنبه الرجال لذلك لخفة وزنها، فبقيت في مكانها تنتظر عودة أحد إليها، حيث مر بها صفوان بن المُعطَّل السُّلَمِي، وكان يبقى قليلا بعد انصراف الجيش لالتقاط ما يكون قد نسوه فرأى السيدة عائشة وكان يعرفها لرؤيته لها قبل الحجاب فلما رآها دهش وتراجع قائلا: إنا لله وإنا إليه راجعون ما خلَّفك

(١) حياة محمد – أ. محمد حسين هيكل صـ ٣٥٥.

رحمك الله ؟ فلم تجبه. فقرب لها البعير فركبت وسار مسرعا إلى المدينة.

وبدا البعض يتهامسون، منهم حَمْنة أخت زينب بنت جَحْش، وعاونها حسان بن ثابت، وعلى بن أبي طالب أما **عبد الله بن أبي بن سلول** " فوجد في هذا الحديث مرعى خصيبا لشفاء ما في نفسه من غل وجعل يذيعه جهد طاقته.

واستمر ذلك فترة حتى أنزل الله تعالى براءة السيدة عائشة في الآية ١١ من سورة النور وما بعدها.

وتنفيذا لحكم القرآن، تم تنفيذ الحد فيمن أفصح باتهام السيدة عائشة، ثم عادت علاقتهم كما كانت برسول الله ﷺ، وطلب من أبي بكر ألا يحرم مِسْطحا عطفه الذي عوده إياه وكان مسطح من أوائل من تكلموا في حق السيدة عائشة رضي الله عنها، وهو ممن كان أبو بكر الصديق ﷺ يحسن إليهم.

- وفي الصحيحين أن النبي ﷺ مر **بعبد الله بن أبي بن سلول**، وهو ﷺ على حمار فلما رآه رسول الله ﷺ تذمم من أن يجاوزه حتى ينزل فنزل وسلم، ثم جلس قليلا ودعا إلى الله ﷻ وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر، إلا أن **عبد الله بن أبي** زام لا يتكلم حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته. قال ابن أبي: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، وقبض على أنفه لئلا يصيبه غبار الحمار، فغضب رسول الله ﷺ من كلام **ابن أبي** إلا أن سعد بن عبادة طلب من الرسول ﷺ أن يعفو عنه، وقال: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نَزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيرة على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه، فُعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ.

قال ابن اسحق: وحدثني الزهرى عن عروة ين الزبير، عن أسامة قال وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة، وفي وجهه ما قال عدو الله **ابن أبي** فقال: والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئا، لكأنك سمعت شيئا تكرهه، قال: "**أجل** " ثم أخبره بما قال ابن أبي: فقال سعد: يا رسول الله؛ ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا [1].

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤ صـ٣٠٤.

وقد أشار القرطبي إلى ذلك عند تفسيره قوله تعالى: (لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾)سورة آل عمران/١٨٦

- كما قيل في كتب التفسير أن **عبد الله بن أبي** هو المقصود في قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾) سورة المائدة/٥١

قيل: المراد به المنافقون، الذين يوالون المشركين ويخبرونهم بأسرار المؤمنين، وقال السُّدِّي: نزلت في قصة يوم أحد حين خاف المسلمون، حتى هم قوم منهم أن يوالوا اليهود والنصارى وقيل: نزلت في عبادة بن الصامت **وعبد الله بن أبي بن سلول**" فتبرأ عبادة من موالاة اليهود، وتمسك بها ابن أبي، وقال: إني أخاف أن تدور الدوائر"[1]

- بعد أن علم الرسول ﷺ أن بلاد الروم تهيئ جيوشا لغزو العرب، أراد الرسول ﷺ أن يسير إليهم لملاقاتهم ومنعهم من اجتياز الحدود العربية، وقد تولى ﷺ قيادة الجيش، " وكان **عبد الله بن أبي بن سلول** قد خرج في جيش من قومه يسير به إلى جانب جيش الرسول ﷺ لكن النبي رأى أن يظل عبد الله وجيشه بالمدينة، لأنه كان بعدُ ضعيف الثقة به وبصحة إيمانه"

وانطلق جيش المسلمين إلى تبُوك، إلا أن الروم آثرت الانسحاب بجيشها لتحتمي داخل بلاد الشام في حصونها، وعاد جيش المسلمين، حيث مرض **عبد الله بن أبي بن سلول**، بعد شهرين من عودة المسلمين ومات بعدها

ولكن ما موقف الرسول من **عبد الله بن أبي بن سلول** بعد وفاته وقد ظهرت عداوته للرسول ﷺ وللمسلمين، لقد نهى الرسول ﷺ أن يتعرض له أحد من المسلمين بأي سوء من القول أو الفعل، ووافق على أن يصلي عليه إكراما

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٦ صـــ٢١٦.

لولده.

لما توفى **عبد الله بن أبي بن سلول** (جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أعطني قميصك أكفنه فيه فأعطاه النبي قميصه وأمره أن يكفنه فيه، وقال رسول الله ﷺ: " آذنوني به " فلما أراد النبي ﷺ أن يصلى عليه فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه فقال: ماذاك لك تصلى عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر لهم ؟ قال له النبي ﷺ: أنا بين خيرتين: إنما خيرني الله أو أخبرني الله فقال (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) فقال: سأزيده على سبعين) [1] .

وفي رواية: يقول عمر بن الخطاب ﷺ: فلما وقف عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله **عبد الله بن أبي** القائل يوم كذا – وكذا أعدد أيامه ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت عليه قال أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت فقد قيل لي: " استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم " لو أني أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت.

قال فعجبت لي وجرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم.

قال ثم صلى عليه رسول الله ﷺ وصلينا معه وقام الرسول ﷺ على قبره حتى دفن وفرغ منه [2] . ثم أنزل الله عليه: (**وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ** ﴿٨٤﴾) سورة التوبة/٨٤

قال عمر: فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى، وكلم رسول الله ﷺ أصحابه فيما فعل **بعبد الله بن أبي بن سلول** فقال " وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله. والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه ".

(١) الموطأ – مالك بن أنس – كتاب الجنائز ج ١ صـ٤٨٨.

(٢) رواه البخاري.

وقد أخرج الله من صلب **عبد الله بن أبي بن سلول** ابنه عبد الله من سادة الصحابة وأخيارهم كان اسمه الحباب، فغيره النبي ﷺ وسماه **عبد الله**، شهد بدرا، واستشهد يوم اليمامة.

ومعاملة الرسول ﷺ **لعبد الله بن أبي بن سلول** موقف آخر، يؤكد سماحة الرسول وحسن تعامله مع جميع الناس مشركين ومنافقين، رغم ظهور عداوتهم للإسلام وللمسلمين، بل إن المنافقين قد يكون ضررهم أشد وأنكى، لأنهم غير معروفين ويعيشون بين المسلمين، ويتمكنون من الإضرار بالمسلمين، لأنهم أقرب إليهم، وقد يتخلون عن المسلمين وقت الشدة، والحاجة إليهم، فتكون الأضرار في الصميم، وتؤدي إلى خلخلة المجتمع وتصيبه بالوهن والضعف.

ولو استجاب الرسول ﷺ لقتل **عبد الله بن أبي** ما خرج من صلبه مسلم من سادة الصحابة وأخيارهم، ولتحدث الناس عن قتله ﷺ لأصحابه.

وتوفى الرسول ﷺ ولم يخبر الصحابة بأسماء المنافقين، سترا لهم، لعلهم يتوبون إلى الله ﷻ، وترك أمرهم ومصيرهم إلى الله ﷻ، وأخبر فقط الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان حتى لا يصلى هو والمسلمون على المنافقين، تنفيذاً لأمر الله ﷻ

لقد تجلت الرحمة والشفقة واللين، في خلق رسول الله ﷺ، وصدقت السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه فقالت: " كان خلقه القرآن ".